

## من بلاغة التقييد بالشرط في القرآن الكريم

AHMED İSMAİL HASSAN ALİ

ÖĞR. GÖR. DR., ANKARA Ü., İLAHİYAT F., ARAP DİLİ VE BELAĞATI

### Özet

Şüphesiz Kur'an-ı Kerim; Arapça fesahatinin zirvede olduğu, belagatin en önemli ayırt edici vasıf sayıldığı bir zaman diliminde, Peygambere indirilen ebedi bir mu'cizedir. Belagat ustaları, hiçbir nazmun Kur'an ile boy ölçüşemediğini, O'nun ifade gücünü ve kudretini aciz bırakan bir seviyede olduğunu hemen anladılar. Kur'an ile bu konuda yarışa kalkışanlar da hüsrana uğrayıp, ifadesinin güzelliğine boyun eğmekten başka bir çare bulamadılar.

Uzun asırlar boyunca, kuram ve kaideler üzerine yoğunlaşan belagat, en parlak asırlarda dahi sadece şahit getirme ve misallendirmeye önem verir olmuştur. Modern zamandaki araştırmacılar ise beyan üslubuna yönelerek ilk asırlarda oluşan bu kuramları tatbik ettiler. Araştırmacıların, bir konu ile ilgili pek çok âyeti ele alıp derinlemesine bir analize tabi tuttuklarını; veya belagat ile ilgili bir konuyu belirleyip o konunun âyetlerde nasıl ortaya çıktığını gösterdiklerine tanık oluyoruz.

“Şart ile takyid”in, belagatin sınırlarını ortaya çıkarmadaki rolü, konunun ehemmiyetini ortaya koymaktadır. Biz bu araştırmamızda “Şart ile takyid”e örnek verilebilecek bir grup âyeti ele alarak, gerek mana gerekse metin yönünden inceledik. Şüphesiz ki “takyid” konusunu tüm yönleri ile bir makalede ele almak imkansızdır.

### Anahtar Kelimeler

Kur'an, Belagat, takyid, Şart.

### Abstract

The Quran is an eternal miracle that revealed to Prophet in a period which fluency in Arabic was at the summit and rhetoric were accepted the most significant distinctive qualification. Masters of rhetoric could not compete with Quran's rhetoric and the understood its expressive power immediately and accepted its extraordinary language.

For centuries Arabic rhetoric focused on the theories and rules and given importance to evidence and examples in its the brightest period. And the rhetoric experts in the modern period practiced the old theories and rules. And they took a verse and research its rhetoric.

'Shart' and 'takyid' are important to uncover the mysteries in style of rhetoric. So in our research we took same verses which appropriate to 'Shart' and 'takyid' and examined their aspects of meaning and text.

### Keywords

Quran, rhetoric, takyid, Shart.

### مدخل

يأتي تقييد الجملة بالشرط لأغراض وأسرار بلاغية يقتضيها المقام، قال الخطيب: (وأما تقييده - أي الفعل - بالشرط فلا اعتبارات لا تعرف إلا بمعرفة أدواته من التفصيل وقد بُيِّن ذلك في علم النحو)<sup>(١)</sup>. والمقصود بالفعل المقيّد هنا المسند الواقع في جملة الجزاء؛ قال الدسوقي: (أي الفعل الواقع مسنداً في جملة الجزاء نحو: إن جئني أكرمتك، فالشرط مقيّد لأكرمتك)<sup>(٢)</sup>.

وهذه الاعتبارات لكون المقام يقتضي التقييد بما يفيدها<sup>(٣)</sup> انطلاقاً من الوضع اللغوي للشرط، وهو إفادة (تعليق حصول مضمون جملة بحصول مضمون جملة أخرى،

١ الإيضاح في علوم البلاغة - المعاني، والبيان، والبدیع للخطيب القزويني ت ١٧٣٩ هـ مكتبة الآداب - تحقيق الدكتور عبد القادر حسين - ط أولى - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م. ٣٥/٢.

٢ حاشية الدسوقي - ضمن شروح التلخيص - دار السرور - بيروت - بدون تاريخ ٣٥/٢.

٣ السابق: ٣٥/٢.

إما في الماضي كما في (لَوْ) وإما في الاستقبال مع الجزم كما في (إذا) أو مع الشك كما في (إن) أو في جميع الزمان كما في (مَهْمَا) أو المكان كما في (أَيْنَ) (٤).  
وقد ربط البلاغيون معرفة النكات البلاغية بمعرفة المراد من الأدوات الشرطية وبينوا أن هذه الأدوات معروفة تفصيلاً في علم النحو (٥).

فمعرفة استعمال الأداة وما تفيده من معان هو الداعي إلى استعمالها في المقام الخاص بها ومن ذلك أن «متى» للزمان «وأين» للمكان «ومن» لما يعقل و«ما» لما لا يعقل، وهذه أمور تكفل بشرحها علم النحو، فلم يتعرض لها البلاغيون إلا مساً خفيفاً

وصبوا دراساتهم على أدوات ثلاث هي «إِن ، وَإِذَا ، وَلَوْ» وعللوا ذلك بأن فيها أبحاثاً كثيرة لم يتعرض لها في علم النحو "وهي كلمة موفقة منهم؛ ذلك لأن هذه الأدوات لها دواع ومقتضيات، وقد تخرج عن معناها الأصلي في بعض المقامات فحتاج إلى دراسة عامة لمعرفة هذه الدواعي، كما تحتاج إلى دراسة السياقات المختلفة التي ترد فيها؛ لأن السياقات قد توحى بعطاءات أخرى غير المتفق عليها قاعدة.

وقد بينوا أن (إِن، وَإِذَا) تتفقان في أن الشرط فيهما في الاستقبال ٧. بمعنى «أن فعل الشرط فيها لا بد أن يكون مستقبل المعنى سواء كان ماضي اللفظ أو مضارعه وهذا متفق عليه ٨. لكنهما يفترقان بعد ذلك في أن (إِن) الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط، ولذا فهي لا تقع في كلام الله - تعالى - على الأصل لأنه عالم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، فيستحيل في حقه - تعالى - الشك والتردد في شيء ما، لكنها

٤ السابق: ٣٥/٢ .

٥ ينظر : شروح التلخيص- دار السرور - بيروت - لبنان ٣٥/٢ .

٦ مختصر السعد- ضمن شروح التلخيص- دار السرور- بيروت- بدون تاريخ ٣٨/٢ .

٧ شروح التلخيص : ٣٨/٢ .

٨ الكشافعن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف / أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريالخوارزمي

٥٤٦/١ . ٥٣٨-٤٦٧

تقع حكاية عن أحد أو على ضرب من التأويل<sup>٩</sup>. أما (إذا) فالأصل فيها جزم المتكلم بوقوع الشرط في المستقبل وهذا الجزم بحسب اعتقاد المتكلم؛ لأن الشرط مطلقاً مقدر الوقوع في المستقبل<sup>١٠</sup>. وإذا كانت «إن، وإذا» للشرط في المستقبل فإن (لو) بخلافهما فهي للشرط في الماضي.

ولذا يقع الماضي غالباً مع (إذا)؛ لأن الحكم فيها مقطوع بوقوعه، ولا يقع مع (إن) إلا نادراً؛ لأن الحكم فيها مشكوك به<sup>١١</sup>. وقد اجتمع الاستعمالان في قوله - تعالى -: (فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ) [الأعراف: ١٣١] أتى في جانب الحسنه بلفظ (إذا) لأن المراد بالحسنه المطلقة التي حصولها مقطوع به، ولذلك عرفت تعريف الجنس وجوز السكاكي أن يكون تعريفها للعهد ... وأتى في جانب السيئة بلفظ (إن) لأن السيئة نادرة بالنسبة إلى الحسنه المطلقة ولذلك نكرها<sup>١٢</sup>.

وقد اصطفت عدة نماذج لاستعمالات «إن، وإذا، ولو» في القرآن الكريم يتضح من خلالها بعض الأسرار البلاغية لورود التقييد بالشرط في القرآن الكريم .

#### المبحث الأول : تقييد الشرط بـ «إن»

قوله - تعالى - : (إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) [النساء: ١٤٩].

<sup>٩</sup> عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح - بهاء الدين السبكي - ضمن شروح التلخيص ط دار السرور - بيروت - لبنان . : ٣٨/٢

<sup>١٠</sup> ينظر: شروح التلخيص : ٣٩/٢ ٣٨/٢.

<sup>١١</sup> السابق: ٣٩/٢ ٣٨/٢.

<sup>١٢</sup> ينظر : السابق : ٤٠/٢.

بعد أن أباح الله - سبحانه - للمظلوم أن يجهر بالسوء لظالمه في قوله: (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ) [النساء: ١٤٨] ندب هنا في هذه الآية إلى ما هو أولى وأفضل، فقال: (إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء) أي: إن تظهروا طاعة وبرا، أو تفعلوه سرا، أو تعفوا عن ظلم وقع عليكم - ولكم المؤاخذة عليه - فالعفو خير لكم وهو أولى بكم<sup>١٣</sup>.

بدأت الآية الكريمة ب (إن) الشرطية وهي لتعليق حصول الجزاء على حصول الشرط في الاستقبال، وهنا نجد إثارة النظم الكريم الأداة (إن) بالتعبير، فأفاد أن إبداء الخير وإخفائه أمر نادر الوقوع، وليس الأمر على ظاهره، وإنما كان ذلك للترغيب في الخير، وأنه لا يهتدي إليه إلا من وفقه الله لذلك - وهم قليل - قال شيخ زاده: (وإنما حث عليه لكونه أحب وأفضل)<sup>١٤</sup>.

ومما يقوى هذا الاستخدام؛ المضارع (تبدوا)، و(تخفوه)، و(تعفوا) ولفظ (خيرا) ولفظ (سوء) الذي جاء منكرًا، فأفاد المدح على الفعل حتى وإن كان قليلا. يقول ابن عاشور: (فإبداء الخير إظهاره، وعطف عليه أو تخفوه لزيادة الترغيب ألا يظنوا أن الثواب على إبداء الخير خاصة)<sup>١٥</sup>.

وقد استثنى النظم الكريم من الجهر بالسوء المنهي عنه في الآية هذا المعنى الذي جاء في إطار الشرط الذي يجلب ذهن المخاطب؛ لأنه يفيد بوضعه اللغوي ترتب شيء على شيء (ترتب جزاء وجواب على شرط) وهذا راجع إلى ذكر جزاء من يظهر الخير أو يفعله سرا أو يعفو عن سوء، هذا الجزاء الذي لم يصرح به في النظم، وإنما جاء فيه دليل على في أسلوب الجملة المؤكدة بأن والاسمية و(كان) التي تفيد الاستمرار،

١٣ السابق ٤١/٢ ، ٤٢ .

١٤ ينظر: البيضاوي مع حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الرازي - أحمد بن محمد عمر الخفاجي ت ١٠٦٩ هـ - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ٣/٣٨٢ ، ٣٨٣ .

١٥ حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي - دار التراث العربي - بيروت - لبنان - بدون تاريخ : ٢ / ٧٩ .

ودلالة هذه الجملة أن العفو ليس فقط على فعلكم الذي جاء في صورة الشرط ولكنه دائم لله - تعالى -.

وذكر هذه الأفعال الثلاثة في أسلوب الشرط (تبدوا خيراً، تخفوه، تعفوا عن سوء) ينتظم الصور التي تلي وقوع الظلم على الإنسان، وفي كل صورة- أو فيها مجتمعة- يكون الجواب واحداً، وهو العفو من الله- تعالى -، ليحث السامع على العفو أيضاً، والأسلوب بهذا الترتيب يرغب في العفو؛ قال البيضاوي: (وهو حث المظلوم على العفو، بعدما رخص له في الانتصار حملاً على مكارم الأخلاق)<sup>١٦</sup>.

وقال الزمخشري: (ثم حث على العفو، وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء- وإن كان على وجه الانتصار- بعد ما أطلق الجهر به وجعله محبوباً حثاً على الأحب إليه، والأفضل عنده، والأدخل في الكرم والتخشع والعبودية، وذكر إبداء الخير وإخفاؤه تشبيهاً للعفو، ثم عطفه عليهما اعتداداً به وتنبهها على منزلته، وأن له مكاناً في باب الخير وسيطاً، والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفاؤه قوله: (فإن الله كان عفواً قديراً) أي يعفو عن الجانبين مع قدرته على الانتقام)<sup>١٧</sup>.

وجاء قوله: (لأكفرنَّ) جواباً للقسم، وذكر هذه النعم في الجواب وهي قوله: (لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار) فيه تقبيح لهؤلاء اليهود لعظم النعمة المكفورة، وتعرض بهم في تركهم إياها.

والقارئ يلمح قوة المعاني التي تضمنتها الآية والتي جاءت في ثوب التوكيد من القسم، واللام، وقد، والفعل الماضي، والفعل المضارع المؤكد بالنون الثقيلة، والتعبير بالميثاق، كل أولئك يدل على قوة المعنى الذي تؤديه الآية، ولذا جاءت الجملة الشرطية على صيغة الماضي.

<sup>١٦</sup> تفسير التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر - بدون تاريخ: ٧/٦.

<sup>١٧</sup> البيضاوي بحاشية زاده: ٧٩/٢.

قال الرمخشري: (لأنَّ الكفر إنَّما عظم قبحه، لعظم النعمة المكفورة، فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر وتمادى) ١٨.

قوله - تعالى - : (لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) [المائدة : ٢٨].

وردت هذه الآية الكريمة في سياق حديث القرآن الكريم عن قصة ابني آدم - عليه السلام - عندما عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغيا عليه وحسداً له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله - عز وجل -، فهذه الآية التي نحن بصددنا تذكر بعضاً من القصة، وهو قول المقتول لقاتله عندما عزم على قتله: (لكن بسطت..). أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، بل أصبر وأحتسب.

بدأت الآية الكريمة باللام في قوله: (لكن) وهي الموطئة للقسم، ثم جاء بـ (إن) الشرطية المشعرة بعدم تحقق الوقوع، تويخاً له - أي القاتل - وإشعاراً بأن هذا الفعل مما ينبغي ألا يقع منه، خاصة وأنه أخوه، وجاء الفعل ماضياً مع (إن) على عكس الغالب، وذلك للإيحاء بأن قتل أخيه له واقع لا محالة، لأن الماضي مع (إن) لفظاً لا يأتي إلا لغرض بلاغي وهو إبراز غير الحاصل الذي يحدث في المستقبل في معرض الحاصل الذي وقع في الماضي وتحققنا من وقوعه، كما في قوله - تعالى - : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) [الزمر: ٦٨] وقوله (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ) [الكهف: ٤٧] إذ جعل المتوقع الذي لا بد من وقوعه بمنزلة الواقع ١٩.

١٨ الكشاف: ٥٧٦/١.

١٩ السابق: ٦٠٠/١.

كما أن تقييد الفعل (بسطت) بشبه الجملة (إلَى) فيه تويخ للقاتل، بتنبهه إلى أنه سيفعل ذلك بأخيه، كما أن فيه حثاً له على الرجوع عن فعلته.

وجاء قوله: (مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ) جواباً للقسم المحذوف الموطأ له باللام، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، لما هو معروف من أنه إذا اجتمع القسم والشرط فالجواب للسابق منهما، لكنها لدلالته على جواب الشرط كانت في المعنى جواباً له، ولو كانت جواب الشرط حقيقة لزمته الفاء.

ومن بلاغة النظم الكريم ودقته في هذه الآية مجيء الشرط بلفظ الفعل والجزاء باسم الفاعل، ففيه عدول عن الفعلية إلى الاسمية لسر من أسرار النظم الكريم بينه البيضاوي بقوله: (وإنما قال: (ما أنا بباسط) في جواب: (لكن بسطت) للتبري عن هذا الفعل الشنيع رأساً، والتحرز من أن يوصف به، ويطلق عليه، ولذلك أكد النفي بالباء) ٢٠.

ومعنى ذلك أنه نفي عن نفسه أصلاً صدور هذا الوصف للمبالغة في أنه ليس من شأنه ذلك، ولا ممن يتصف به قال ابن المنير: (وإنما امتاز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصية من حيث إن صيغة الفعل لا تعطي سوى حدوث معناه من مفاعل لا غير وأما اتصاف الذات به فذاك أمر يعطيه اسم الفاعل) ٢١.

وقال الشهاب: (وليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع ولذلك أكده بالباء لما فيه من معنى المسامحة، ولم يقل: ما أنا بقاتل بل بباسط للتبري عن مقدمات القتل فضلاً عنه) ٢٢.

٢٠ ينظر: بغية الإيضاح ١/١٢٢، وعلم المعاني- بسبوني عبدالفتاح فيود-١/٨٨ - مؤسسة المختار للنشر والتوزيع (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م).

٢١ ينظر: البيضاوي مع حاشية الشهاب ٣/٤٥٨، والكشاف: ١/٦٠٧.

٢٢ الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنى الإسكندري المالكي حاشية على الكشاف ط دار الفكر- ط ١، ١٣٩٧ هـ- ١٩٧٧ م: ١/٦٠٧.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي أو الخبر الذي في معنى الفعل كاسم الفاعل وإيلاؤه حرف النفي أفاد التقوية والتوكيد، فالمقتول ينفي عن نفسه مجرد الإقدام على الدفاع عن نفسه بهذا الأسلوب المؤكد الذي جاءت فيه (ما) النافية وليها المسند إليه المقدم (أنا) ثم (الباء) المزيد في خبر (ما) ثم اسم الفاعل (باسط).

وعن سر اقتضاء النظم الكريم مجيء الشرط فعلاً، وما يدل على الجواب اسماً وبلاغة ذلك يقول ابن المنير: (وإنما امتاز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصية من حيث إن صيغة الفعل لا تعطى سوى حدوث معناه من الفاعل لا غير، وأما اتصاف الذات به فذاك أمر يعطيه اسم الفاعل ومن ثم يقولون قام زيد فهو قائم، فيجعلون اتصافه بالقيام ناشئاً عن صدوره منه، ولهذا المعنى قوله - تعالى - (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) [الشعراء: ١١٦] عدولاً عن الفعل الذي هو «لنرجمَنَّك» إلى الاسم تغليظاً: يعنون أنهم يجعلون هذه لثبوتها ووقوعها به كالسمة والعلامة الثابتة ولا يقتصرون على مجرد إيقاعها به) ٢٣.

وهناك فروق بين التركيب الأول (لئن بسطت إليّ يدك) والتركيب الثاني (ما أنا بباسط يدي إليك) تتجلى فيما يأتي:

أولاً: أن الشرط جاء بصيغة الفعل الماضي، وما دل على الجواب جاء بالجملة الاسمية وقد سبق بيان هذا.

ثانياً: أن الجار والمجرور متعلق مادة (ب س ط) قُدِّم في التركيب الأول على المفعول وأُخِّر في التركيب الثاني وهذا يثير سؤالاً مؤداه: لم جاء التركيب الثاني مخالفاً في الترتيب للأول؟

وقد عرض العلامة ابن أبي الإصبع لهذه الآية في صيغ بديعي هو التهذيب قال: (لقائل أن يقول: لو توخى حسن الترتيب في عجز الآية لأتى وزن صدرها!! والجواب أن حسن الترتيب منع منه في صدر الآية مانع قوى - وهو مخافة أن تتوالى ثلاثة أحرف متقاربات

المخارج- فيثقل الكلام بسبب ذلك فإنه لو جاء الكلام فيه مرتبا: لقييل: لغبسطت يدك إليّ، والطاء والتاء والباء متقاربات المخارج؛ فلذلك حسن تقديم المفعول الذي تعدى الفعل إليه بالحرف على المفعول الذي تعدى إليه بنفسه، ولما أمن هذا المحذور في عجز الآية بما اقتضته البلاغة من الإتيان باسم الفاعل موضع الجملة الفعلية لتضمنه معنى الفعل الذي اتضح به المقابلة جاء الكلام على ترتيبه من تقديم المفعول الذي تعدى الفعل إليه بنفسه على المفعول الذي تعدى الفعل إليه بالحرف، وهذا من أحسن شواهد الترتيب والتهذيب)٢٤.

وجاء تذييل الآية مفسرا الجملة الشرطية، ومبينا الحامل للمقتول على أن يقول: (ما أنا بباطل) في الجواب؟ وذلك في قوله: (إني أخاف الله رب العالمين) فكان هذا هو الدافع له إلى الإحجام عن المبادرة أو التفكير في قتل أخيه؟ وهو خوفه من الله -عز وجل-.

المبحث الثاني : تقييد الشرط بـ «إذا»

قوله - تعالى - : (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) [النساء : ٨١].

المعنيون بقوله: (ويقولون) هم المنافقون، والمعنى: أنك إذا أمرتهم بشيء أو نهيتهم عن شيء يظهرون الموافقة والطاعة، فإذا خرجوا من عندك وابتعدوا عنك استسروا ليلا فيما بينهم بغير ما أظهروه لك، والله - تعالى - يحصليهم ما يدبرونه في الخفاء، فلا تلتفت إليهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضا، وفوض أمرك لله وداوم على التوكل عليه٢٥.

٢٤ الإنصاف على الكشاف : ٦٠٧/١ ، ٦٠٨ .

٢٥ تحرير التحرير : - ٤٠٦ ، ٤٠٥ - ابن أبي الاصبع المصري تقديم وتحقيق / حنفى محمد شرف - ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

في هذه الآية قيد النظم الكريم الفعل (برزوا) بأداة الشرط (إذا) التي تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه، أو الذي يظن ظناً قوياً وقوعه، فأفاد التقييد بالشرط هنا أن إظهار المنافقين خلاف ما يظنون أمر محقق مقطوع بوقوعه، وبهذا التقييد افترض أمرهم، وتبيين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين سوء نيتهم، فهم يظهرون الإيمان و الطاعة، ولكن سرعان ما يبتلون الكفر والعصيان.

والذي ينظر في الآية ومعناها يرى أنها منذ المطلع ترشح مجيء التقييد ب (إذا) لأنها في شأن جماعة من الناس أظهروا خلاف ما أبطنوا، وقد انطلقوا يؤكدون موقفهم الظاهري للنبي - صلى الله عليه وسلم - بقولهم الذي يخالف عقيدتهم (ويقولون طاعة) وفي هذه الجملة من الإيجاز الدال ما فيها، حيث جاء التعبير فيها عن القول بالمضارع الذي يفيد تجدد الفعل مع تجدد إرادتهم له، فشأن المضارع وقوع الحدث فترة بعد فترة وهذا مناسب كل المناسبة لتلونهم المتجدد، كما أنهم اقتصروا في القول على كلمة واحدة (طاعة) وهي الخبر الاسمي (المصدر) الذي يدل بحكمه على المسند إليه المحذوف (أمرنا، أو شأننا) ٢٦ على دوام الطاعة واستمرارها منهم وقال الزمخشري: (والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها) ٢٧ وقولهم ظاهر الكذب، ومن إرادة تأكيدهم لفعالهم ما نطقوا به على هذه الصورة من حذف المسند إليه وبقاء المسند، وكل هذا يرشح لمجيء الشرط مقيداً ب (إذا) لأنه يطابق إرادة تأكيدهم الطاعة والإذعان وإرادة إخبارهم أنها محققة الوقوع منهم فكان الشرط دالاً على فعالهم الباطني حين يخرجون من عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فتغير طائفة منهم ما قالت، لكن الله عليهم بهم يحصي عليهم ما يقولون.

كما أن من دقة النظم القرآني في التعبير عن فكر المنافقين وسوء طبائعهم التعبير بالفعل (برزوا) دون خرجوا - مثلاً - ومعناه: الظهور، وفي ذلك إيماء إلى سرعة

٢٦ ينظر : تفسير القرآن العظيم - للإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشالدمشقي ت ٧٧٤ هـ - دار

الحديث - ط ٨ - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م / ١ / ٥١٠.

٢٧ الكشاف: ١ / ٥٤٦، ويحتمل أن يكون المسند هو المحذوف ( ينظر: الإيضاح مع البغية ١ / ١٣٢).

تحولهم، وشغفهم في إظهار ما انطوت عليه ضمائرهم فيما بينهم ، وذلك لأنهم بمجرد ظهورهم ينشغلون في مكائدهم، ويستسرون ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه وهذا ما يوحى به جواب الشرط، فقد عبّر بالفعل (بَيَّت) ومعناه : قَدَّرَ أمراً في السر وأضمره؛ لأن أصل البيات هو فعل الشيء في الليل ، والعرب تستعير ذلك إلى معنى الإسرار؛ لأن الليل أكتم للسر<sup>٢٨</sup>.

كما أن التعبير بقوله: (طائفة منهم) بعد أن ذكر حملتهم في بدء الآية – (يقولون) – لبيان أن الشرط وجوابه إنما جاء في حق من علم الله من حاله أنه يبقى على كفره ونفاقه، ويخرج عنه من علم سبحانه من حاله أنه سيرجع عن ذلك. قال القرطبي : (إنما عبر عن حال من علم أنه بقى على كفره ونفاقه ، وصفح عن علم أنه سيرجع عن ذلك)<sup>٢٩</sup>.

قوله- تعالى-: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [المائدة: ٨٣].

هذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن عداوة اليهود والمشركين للذين آمنوا، وعن مودة النصارى للمؤمنين وجاء في سبب نزولها ما أورده السيوطي (أخرج النسائي عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه)<sup>٣٠</sup>. وأورد ابن كثير ما يشبه ذلك؛ إذ جاء بهذه الآية ضمن خمس آيات وأخبر أنها نزلت في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر ابن أبي طالب بالحبشة شيئاً من القرآن بكوا حتى أحضلوا لحاهم وهذا القول فيه نظر، لأن هذه الآية مدنية وقصة جعفر

٢٨ السابق: ٥٤٦/١.

٢٩ ينظر : التحرير والتنوير ١٣٦/٥.

٣٠ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - راجعه وضبطه وعلق عليه / محمد إبراهيم الحفناوى وخرج أحاديثه / محمود حامد عثمان - دار الحديث - الطبعة الثالثة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م : ٢٩٠/٥.

مع النجاشي قبل الهجرة، وقال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ليسمعوا كلامه ويروا صفاته فلما رأوه قرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه) ٣١.

والقارئ الكريم على ذكر من الآية السابقة التي دُرست في فصل التمييز، واستصحاب الدارسة السابقة مما يعين على جلاء المراد في هذه الآية لأنها بدأت بالواو التي عطفت الآية على خبر (أنهم) الثانية، وهو (لا يستكبرون) وهذا هو الأرجح في توجيه هذه الواو.

قال السمين في إعراب الحملة الأولى من الآية: (وهذه الحملة الشرطية فيها وجهان: أظهرهما: أن محلها الرفع نسقا على خبر (أنهم) الثانية وهو: (لا يستكبرون) أي ذلك بأن منهم كذا أو أنهم غير مستكبرين وأنهم إذا سمعوا فالواو عطفت مفرداً على مثله. والثاني: أن الحملة استئنافية أي أنه - تعالى - أخبر عنهم بذلك) ٣٢.

ولأن الأظهر هو الوجه الأول كان اختيار العكبري والبيضاوي، وهو الراجح كما سبق ٣٣.

والجامع بين الحملتين يرجح العطف؛ لأن الثانية بسبب من الأولى؛ فهي تدل على عطف ولين وخشوع، وهي معان مترتبة على عدم الاستكبار الذبأدته الحملة الأولى.

فالواضح أن الآيات تظهر صفات طيبة لطائفة من النصارى نزلت في شأنهم وقد تغلغت في نفوسهم فأظهرت صفحات نقية هي عدم التكبر، والتواضع، واللين، والخشوع، والرفقة، والاستجابة للحق، وهي صفات إذا اجتمعت في المرء كانت داعية للتأثر بسماع الذكر الحكيم وهو متأثر غير مشكوك فيه بل مقطوع بحدوثه إذا استصحبه

٣١ تفسير ابن كثير: ٨١/٢.

٣٢ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون - للسمين الحلبي تحقيق / الشيخ علي محمد معوض وآخرون - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - بدون تاريخ: ٥٩٢، ٥٩٣/٢.

٣٣ التبيان في إعراب القرآن - للعكبري ت ٦١٦ هـ - وضع حواشيه محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط أولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م ٣٦٠/١، والبيضاوي مع حاشية زاده ١٢٩/٢.

ما سبق من صفات ، لأجل ذلك كان الملائم لهذا المقام ورود الشرط مقيداً بـ (إذا) التي تستعمل فيما هو مقطوع به غالباً، ولعل استبصار الآية وما فيها من ألوان بلاغية يدعم هذه المقولة.

فقد احتشد فيها من الألوان ما يرشح استعمال (إذا) فقد بنى الفعل (أنزل) لما لم يسم فاعله، وحذفُ الفاعل هنا مقتضى مقام؛ فقد حذف للعلم به، وليس من نزل في شأنهم هذا القول بمنكرين لذلك، إذا إن من أسباب تأثرهم أنهم يعلمون أنه منزل من عند الله. وعبر عن المضممر بالظاهر وهو (الرسول) - صلى الله عليه وسلم- وهذا من خروج الكلام على مقتضى الظاهر وكان ظاهر التعبير «وإذا سمعوا ما أنزل إليك» لكن أوتر الظاهر هنا على المضممر لتعظيم شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم- أو كما قال البلاغيون في نظيره (لزيادة التمكين)<sup>٣٤</sup>.

كما أن التعبير (بالرسول) خاصّة دون غيره من الأسماء أو الصفات ذو دلالة بالغة في هذا السياق؛ لأنه يُعرّض بمن قست قلوبهم، فلا يستجيبون لداعي الحق لأنهم ينكرون كون النبي - صلى الله عليه وسلم- رسولاً من عند الله، وهذه إشارة إلى أن هؤلاء الذين استجابوا دخل في قلوبهم اليقين بأن النبي - صلى الله عليه وسلم- رسول من عند الله.

أما التعبير بالمضارع (ترى) ففيه نقل للصورة واستحضار للمشهد الكائن، وهو خطاب لكل من تتأتى منه الرؤية وليس بقاصر على النبي - صلى الله عليه وسلم- فقط (قد يترك الخطاب مع معين إلى غيره ليعم الخطاب كل مخاطب على سبيل البديل)<sup>٣٥</sup>.

وتآزر الفعل المضارع (ترى) مع التعبير بالظاهر (الرسول) يؤيد ما نقول، ولو جاء التعبير بالمضممر لكانت الرؤية والخطاب خاصاً بالنبي - صلى الله عليه وسلم-

<sup>٣٤</sup> ينظر : بغية الإيضاح : ١٢٢/١ ، ١٢٣ .

<sup>٣٥</sup> ينظر: المطول في شرح تلخيص المفتاح - سعد الدين التفتازان الهيروى - المكتبة الأزهرية للتراث مصورة عن ط / احمد كامل

بتركيا: ٧١.

فحسب، لكن وضع الظاهر موضع المضمرة نقل دلالة الخطاب في (تري) من الخصوص إلى العموم.

ومما يدعّم ويرشح (إذا) في السياق أيضاً هذا التجوز في الإسناد؛ حيث أسند فيض الدمع إلى الأعين مجازاً عقلياً، قال شيخ زاده: (إسناد الفيض إلى الأعين إسناد مجازي كما في جرى النهر، وسال الميزاب للمبالغة في وصفهم بالبكاء)<sup>٣٦</sup>.  
فإنَّ الأعين لا تفيض؛ أي: تصب إذ(الفيض انصباب عن امتلاء فوضع موضع الامتلاء للمبالغة)<sup>٣٧</sup>.

وإنما الذي يفيض هو الدمع، لكن أسند الفعل إلى المكان- وهو الأعين- ليدل على المبالغة، وقد انتظم تركيب المحازر الفعلي مجازاً مرسلًا، حيث جاء التعبير عن الامتلاء بالفيض من وضع المسبب موضع السبب للمبالغة في السببية، كما قال شيخ زاده<sup>٣٨</sup>، ليس كما قال الشهاب: (بإقامة السبب مقام المسبب)<sup>٣٩</sup> إذ الفيض مسبب عن الامتلاء كما هو معلوم عقلاً.

وعن بلاغة هذا التجوز في الإسناد يقول ابن المنير: ( وهذه العبارة- أي قوله: « تفيض أعينهم من الدمع»- من أبلغ العبارات وأنهاها، وهي ثلاث مراتب: فأولى: فاض دمع عينه- وهذا هو الأصل-، والثانية: محولة من هذه، وهي قول القائل فاضت عينه دمعا، حولت الفعل إلى العين مجازاً ومبالغة، ثم نبهت على الأصل والحقيقة بنصب ما كان فاعلاً عن التمييز، والثالثة فيها: هذا التحويل المذكور، وهي الواردة في الآية، إلا أنها أبلغ من الثانية بإطراح المنبهة على الأصل وعدم نصب التمييز، وإبرازه في صورة التعليل)<sup>٤٠</sup>.

٣٦ حاشية زاده على البيضاوي: ١٢٩/٢.

٣٧ البيضاوي بحاشية زاده: ١٢٩/٢، وينظر: المفردات: ٣٨٧.

٣٨ حاشية زاده على البيضاوي: ١٢٩/٢، وينظر: الكشف: ٦٣٨/١.

٣٩ حاشية الشهاب على البيضاوي: ٥٢٩/٣.

٤٠ الإنصاف على الكشف: ٦٣٨/١، وينظر: حاشية الشهاب على البيضاوي: ٥٢٩/٣.

ومعنى من في قوله: ( من الدمع مما عرفوا... )

قال الزمخشري: ( الأولى لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتداءً ونشأً من معرفة الحق وكان من أجله وسببه، والثانية لتبيين الموصول الذي هو «ما عرفوا»، وتحتمل معنى التبعية على أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم وبلغ منهم، فكيف إذا عرفوه كله وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة)٤١.

وهذه التغيرات البلاغية من اصطفاء ألفاظ وتراكيب تبين - حين التأمل - كيف جاءت (إذا) في مقامها، وكيف أدت الغرض منها.

قوله - تعالى - : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) [المائدة: ١٠٤].

وردت هذه الآية الكريمة في سياق حديث القرآن عن افتراء الكافرين في جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة شرعا لهم وقرية يتقربون بها إلى الله، وليس ذلك بحاصل بل هو وبال عليهم، ورد ذلك في قوله - تعالى - : (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [المائدة : ١٠٣] ثم جاءت هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، تبين أنهم كذلك إذا دُعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك)٤٢.

وردت تلك المعاني في هذه الآية في أسلوب الشرط والجزاء فوضّح المعنى، وأدى الغرض، إذ إنه قيد الفعل بأداة الشرط (إذا) التي تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه - غالباً- وهذا ما يوحي بأن دعوتهم إلى الإيمان ثابتة ومحقة، كما أن من دقائق النظم الكريم مجيء الفعل الماضي المبني لما لم يسم فاعله، وبناء الفعل للمفعول بصرف

٤١ الكشاف: ١/٦٣٨، ٦٣٩، وينظر: حاشية الشهاب على البيضاوي: ٣/ ٥٢٩، ٥٣٠.

٤٢ تفسير ابن كثير ١٠٣/٢ بتصرف.

النظر عن الفاعل يجعله منصّباً على الحدث، وهو فعل القول، فليس المراد مَنْ القائل، وإنما المراد أن القول تم وحدث وهذا من دقائق النظم الكريم أن يوجه الذهن إلى الحدث ويركز عليه، كما أن من شأنه أن يوجز بحذف ما لا أهمية له في النظم، وهذا ما أفاده بناء الفعل للمفعول، ففيه عموم وشمول وفيه إيجاز بالحذف.

وبذا كان لأداة الشرط (إذا) وتقييدها للفعل الماضي دور بارز في التعريض بهؤلاء الذين تحققت دعوتهم إلى الإيمان بما أنزل الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ومع ذلك فهم معرضون وسائرون على طرائق الآباء والأجداد في الكفر والعناد.

كما أن في قوله : (تعالوا) ترغيباً لهم في الترفع عن هذه الدنيا والإيمان بالله - تعالى - كما أن فيه طلب الإقبال، وإصغاء السمع والتفكير ، وحضور مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعدم الصد عنه ، لذلك قال : (إلى ما أنزل الله) وهو القرآن، وأعاد حرف (إلى) فقال: (وإلى الرسول) لأنه يرشدهم إلى فهم القرآن، والإيمان بالواحد الديان وفي إعادة حرف الجر قرينه على إرادة معنيي (تعالوا) الحقيقي وهو حضور مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - والمجازي وهو الترفع عن دنيا الكفر إلى نور الإيمان<sup>٤٣</sup>.

ومن دقائق النظم كذلك مجيء الجواب مرادفاً للشرط في مادة الفعل فالشرط فعله القول والجواب فعله القول كذلك، لكنه هنا مبني للفاعل ليدل على أن ردهم على الداعي فيه تواطؤ واتفاق على ما في أفئدتهم، فليس أحد منهم بمختلف عنهم في ذلك والكل عليه سواء.

ومما تتضح به معاني الآية والمقاصد السابقة الموازنة بين هذه الآية وآية البقرة وهي قوله - تعالى - : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ) [البقرة: ١٧٠] والضمير في "لهم" عائد على

الناس في الآية قبل السابقة ( ١٦٨ ) ” وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم لأنه لا ضال أضل من المقلد“<sup>٤٤</sup>.

ومما يبرز المقارنة بين الآيتين أن آية البقرة جاءت في سياق الحديث عن النهي عن اتباع ما أمر به الشيطان والأمر باتباع ما أنزل الله والمخاطب بالأمر « اتبعوا ما أنزل الله » يصرون على الرضا واتباع ما وجدوا عليه آباءهم وهذا يدل على عدم العقل وعلى الجهل العضال؛ لذا كان الاستفهام المراد به التعجب «أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » فالمضارع يعقلون يدل على أن المخاطبين قد جنبوا عقلمهم» فالعقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيدة الإنسان بتلك القوة ... وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني)<sup>٤٥</sup>.

أما في آية المائدة فكان المضارع « يعلمون » لأنه في سياق الحديث عن تشريع الله - تعالى - الذي يبطل تشريع الجاهلية.

والآيتان متفتتان في البدء بالشرط المقطوع بحصوله المبدوء بـ « إذا » وكتلتهما تبيين أن المعنى واقع لا محالة.

#### المبحث الثالث : تقييد الشرط بـ «لو»

قوله - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا وَإِذَّا لَأَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا\* وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ) [النساء: ٦٦-٦٨].

سبب نزول الآية ما أخرجه ابن جرير عن السدي قال: لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) تفاخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي : والله لقد كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم

<sup>٤٤</sup> الكشاف : ٣٢٨/١ .

<sup>٤٥</sup> المفردات : ص ٣٤١، ٣٤٢ ، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ - الشيخ أحمد بن يوسف بن عبد الدايم المعروف بالسمن الحلبي ت ٥٦٧هـ - تحقيق محمد باسل عيون السود ط دار الكتب العلمية ١٤١١هـ - ١٩٩٦م : ٣ / ١٠٧ .

فقتلنا أنفسنا، فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا، فأنزل الله (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيْبًا) ٤٦ [النساء: ٦٦].

وجعل ابن كثير الآية عامة ولم يقصرها على سبب النزول، فجعل إخبار الله عز وجل في هذه الآية عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى ٤٧.

وهنا قيد النظم الكريم الفعل (كتب) بأداة الشرط (لَوْ) وجاءت (أَنَّ) المشددة بعد (لَوْ) التي من حقها أن يليها الفعل لأن (أَنَّ) في اللغة تنوب عن الاسم والخبر - فالمعنى في (أَنَّ) بعد (لَوْ) أنها نابت عن الفعل والاسم - كما تنوب عن الاسم والخبر فيكون المعنى في قوله: (ولو أننا كتبنا عليهم) كالمعنى في لو كتبنا عليهم، أو يكون الفعل مضمرا مع (أَنَّ) فيكون المعنى: ولو وقع وكتبنا عليهم ٤٨.

وقال العكبري في مثل هذا التركيب الذي جاء في (أَنَّ) بعد «لو» وهو قوله - تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ): «أن» وما عملت فيه مصدر في موضع رفع بفعل محذوف؛ لأن «لو» تقتضي الفعل تقديره لو وقع منهم أنهم آمنوا؛ أي إيمانهم ولم يحزم ب (لو) لأنها تعلق الفعل الماضي بالفعل الماضي، والشرط خلاف ذلك ٤٩.

ومن المعلوم أن «لو» حرف امتناع لامتناع أي امتناع الجواب لامتناع الشرط قال الزجاج: («لو» يمنع بها الشيء لامتناع غيره، تقول لو جاءني زيد لجئتته، المعنى أن مجيئي امتنع لامتناع مجيء زيد، فحقها أن يليها الأفعال، إلا أن (أَنَّ) المشددة تقع بعدها، لأن (أَنَّ) في اللغة تنوب عن الاسم والخبر) ٥٠.

٤٦ لباب النقول في أسباب النزول: ٩٠، ابن كثير: ٤٩٤/١.

٤٧ ينظر: السابق ٤٩٤/١.

٤٨ معاني القرآن وإعرابه للزجاج ت ٣١١ هـ - دار الحديث القاهرة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م ٥٨/٢ بتصرف.

٤٩ التبيان في إعراب القرآن: ٩١/١.

٥٠ معاني القرآن وإعرابه: ٥٨/٢.

أو بعبارة أخرى كما قال ابن هشام: (إن العبارة الجيدة « في لو » قول سيوييه - رحمه الله - حرف لما كان سيقع لوقوع غيره، وقول ابن مالك: حرف يدل على انتفاء تال يلزم لثبوت تاليه) ٥١.

وفي تقييد الفعل بأداة الشرط (لو) الدالة على امتناع الجزاء الناشئ عن امتناع الشرط دليل على رحمة الله بعباده، إذ لو كتب عليهم ذلك لظهرت معصيتهم، لما في التضحية بالنفس من ثقل على الإنسان، إلا من رحم الله وتمكن في قلبه الإيمان - يقول القرطبي: (لم يكتب ذلك علينا رفقا بنا؛ لئلا تظهر معصيتنا فكم من أمر قصرنا عنه مع خفته فكيف بهذا الأمر مع ثقله ٥٢. ونظرة القرطبي إلى الآية هنا توجيه لها على أنها في شأن جميع الناس، هو أحد رأيين في الآية أوردهما الشيخ زاده قال: (لو كتبنا على هؤلاء المنافقين القتل والخروج عن الوطن ما فعله إلا القليل رياءً وسمعة، حينئذ يصعب عليهم الأمر وينكشف كفرهم، فإذا لم نفعل بهم ذلك بل كلفناهم بالأشياء السهلة فليتركوا النفاق وليقبلوا الإيمان على سبيل الإخلاص... وقيل المعنى: لو كتب الله على الناس ما ذكر لم يفعل إلا القليل منهم، وعلى هذا القول يدخل فيه المؤمن والمنافق، وأما الضمير في قوله: (لو أنهم فعلوا ما يوعظون به) فهو مختص بالمنافقين ولا يبعد أن يكون أول الآية عاماً وأخرها خاصاً، وعلى هذا التقدير يجب أن يكون المراد بالقليل المؤمن) ٥٣. أمّا تخصيص المكتوب هنا بالقتل والخروج فهو المماثل لما كتب على بنى إسرائيل، أي لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى إسرائيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل ما فعلوه إلا ناس قليل منهم ٥٤.

وهذا الأمر فيه ثقل على المكلفين به وكان من رحمة الله - تعالى - أن منع كتبه عليهم، وما دام الشرط ممتنعاً فالجزاء المترتب عليه ممتنع أيضاً، انطلاقاً من دلالة (لو)

٥١ مغني اللبيب : ٢٠٧/١ .

٥٢ الجامع لأحكام القرآن : ٢٧١/٥ .

٥٣ حاشية شيخ زاده: ٤٨/٢ .

٥٤ الكشاف: ٥٣٩/١ ، وينظر حاشية زاده: ٤٧/٢ .

الشرطية وتقييد الفعل بها لهذا الغرض، لكن وروده توبيخ للمنافقين، قال الزمخشري: (وهذا توبيخ عظيم) ٥٥.

وعلى نسق القيد الأول جاء القيد الثاني: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) [البقرة: ٦٦-٦٨] وهو امتداد لسياق التوبيخ؛ لأنه جاء في أسلوب امتناعي حيث دل على تمرد المنافقين، لأنهم لم يفعلوا ما يوعظون به من اتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به؛ لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. وترتب على هذا الشرط الممتنع حملتان أو جزاءان وردا في آيتين (وإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) [النساء: ٦٧، ٦٨]. ٥٦.

قوله - تعالى - : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) [المائدة: ٦٥] وقوله - تعالى - : (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) [المائدة: ٦٦].

المعنى: ولو أن أهل الكتاب آمنوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبما جاء به وقرنوا إيمانهم بالتقوى، لغفرنا لهم سيئاتهم، ولم نؤاخذهم بها، ولأدخلناهم جنات النعيم، ولو أنهم أقاموا التوراة، والإنجيل فعملوا بما فيهما، وآمنوا بما أنزل إليهم من كتب سائر الأنبياء، لحملهم إيمانهم بها على الإسلام، ولو أنهم تركوا ذلك الكفر لعمهم الخصب والرخاء ٥٧. في الآية الأولى قيد النظم الكريم إيمان أهل الكتاب

٥٥ الكشاف: ٥٣٩/١.

٥٦ السابق: ٥٣٩/١.

٥٧ ينظر: البيضاوي مع حاشية الشهاب: ٥١١/٣ وما بعدها.

وتقواهم بأداة الشرط (لو) وهذا دليل على امتناع حصوله؛ لأن الجواب ممتنع وبامتناع الجواب امتنع الشرط، كما سبق في دلالة (لو) في النموذج السابق.

وجاء هنا في الجواب بلام التوكيد التي يكثر وقوعها في جواب (لو) إذا كان فعلاً ماضياً مثبتاً؛ وذلك لتأكيد تحقيق التلازم بين الشرط والجواب، فأفاد التقييد بالشرط هنا امتناع المغفرة لأهل الكتاب، مما يؤدي بالطبع إلى عدم دخولهم الجنة، وذلك لامتناع وقوع الإيمان والتقوى منهم، كما أن فيه دليلاً على عنادهم، وتكبرهم وحيادهم عن الحق إلى الضلال، يقول الزمخشري: (وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمة الله - تعالى - وفتح باب التوبة على كل عاص، وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى<sup>٥٨</sup>).

وقول الزمخشري هنا كاشف عن رؤية واسعة للسياق؛ حيث جاءت الآية بعد تعداد معاصي أهل الكتاب وحمودهم وكفرانهم، ومع كل هذه السيئات والآثام جاءت هذه الآية لتبين أنهم لو آمنوا لغفر الله ذنوبهم ولجزاهم عن إيمانهم جنات النعيم.

وواضح أن دلالة (لو) تخدم الغرض المسوقة له الآية، وهو عدم إيمان أهل الكتاب، فالتقييد بها مقتضى مقام؛ حيث جاء المعنى في أسلوب الشرط الامتناعي ليفيد عدم وقوع الجواب والشرط جميعاً.

كما قيد النظم الكريم قوله: (ولو أنهم أقاموا التوراة.. الآية الثانية) - بأداة الشرط (لو) وفيه دليل على تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وكفرهم بما أنزل الله، وهذا ما أوحى به التقييد بأداة الشرط (لو) التي تدل على امتناع الجزاء، وعلى أن امتناعه ناشئ عن امتناع الشرط، لذا كان سبب حرمانهم من هذه الخيرات هو عدم إقامتهم أحكام التوراة والإنجيل وتجاوزهم حدودهما، وكفرانهم بسائر الكتب مع أنهم مكلفون بالإيمان بجميعها. وإقامة التوراة والإنجيل تعني إقامة أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت الرسول - صلى الله عليه وسلم -<sup>٥٩</sup>.

<sup>٥٨</sup> الكشف: ٦٢٩/١.

<sup>٥٩</sup> ينظر: الكشف: ٦٢٩/١، والبيضاوي مع حاشية الشهاب: ٥١١/٣.

والتعبير بالإقامة فيه دلالة التمام والاستواء المطلوبين في التعامل مع أحكام الله - تعالى - وعدم التهاون والتساهل فيها كما في إقامة الصلاة بمعنى أدائها على الوجه الأمثل. وجاء ختام الآية مؤازراً للشرط الامتناعي (ساء ما يعملون) ”أي بئس ما يعملونه، وفيه معنى التعجب أي: ما أسوأ عملهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه أو الإفراط في العداوة“<sup>٦٠</sup>.

### الخاتمة

أولاً: جاء التقييد بالشرط لتعلق المعنى به، ولأنه الغرض المسوق له الكلام. ثانياً: يرتبط فهم القيد بالسياق الذي ورد فيه، والمعنى الذي جاء من أجله. ثالثاً: قد يرد القيد حيث لا غنى عنه في الكلام ويختلف المعنى كلية من دونه وحينئذ يكون كالعمدة أو كالركن في الكلام. رابعاً: قد يرد القيد مقيداً حين يراد تولد القيود في أنفسها لمزيد من الأهمية والاعتناء.

خامساً: أوضح البحث أن النظر في القيد ينبغي أن يتبع بالنظر في مدلوله؛ لأن مدلول الكلمة يساعد في الوقوف على سر التقييد بها. سادساً: قرر البحث أن التقييد بـ (إن) و(إذا) قد يأتي عكس ما عرف عنهما من أن الأولى للشك والثانية للجزم؛ فربما تجيء إحداها في مقام يتطلب الثانية لنكتة بلاغية. هذه بعض النتائج العامة التي ظهرت في ثنايا البحث، وهناك نتائج خاصة ترتبط بسياقاتها ومقاماتها تحتاج في النص عليها إلى إيراد الآيات مفردة آية آية، وهذا عمل فيه إطالة والإيجاز بلاغة.

